الباب السادس

الامبراطورية الروسية
البداية والنهاية

- نشأة الدولة الروسية .
- دولة كييف ــ موسكو .
- دولة المغول والتتار (دولة القبيلة الذهبية)
- أول دولة روسية موحدة .
- الزحف الروسي الاستعماري على أراضي المسلمين .
- الصراع على القفقاز ومخططات القياصرة لاسترداد القسطنطينية .

الامبراطورية الروسية ..البداية .. والنهاية

نشأة الدولة الروسية

دولة كييف ـ موسكو:

قامت في منطقة كييف في القرن العاشر الميلادي أول دولة روسية ،اعتلى إمارتها **سيفاتوسلاف** الأول ٩٣٦- ٩٧٢ م . واعتنقت أرملته أولجا الدين المسيحي ، وفي عام ٩٨٠م . اعتلى الإمارة **فلاديمير** الأول الكبير الملقب بالشمس المضطربة ، وبعد وفاته عام ١٠١٥م . كرس قديسا .

كانت الإمارة تضم عددا من الشعوب السلافية التي كانت تسكن حول هذه المنطقة، ومنطقة موسكو والمناطق المجاورة لها من جهة الغرب ، وشهدت هذه الإمارة ازدهارا كبيرا وجرى تأسيس نحو ٩٠ مدينة بها ، وبقيت هذه الدولة تدار من قبل حكومة مركزية قوية حتى القرن الثاني عشر الميلادي ، ولكن في نهاية ذلك القرن انقسمت هذه الدولة الروسية إلى عدة دويلات مثل إمارة موسكو و إمارة كييف .

الغزو المغولي التتري (دولة القبيلة الذهبية)

كان هذا الانقسام سببا في نجاح المغول والتتار في اجتياحهم لهذه الإمارات وإخضاعها لحكمهم الذي استمر ثلاثة قرون من أول القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلاديين .ففي عام ١٢٢٣م. غزا المغول بقيادة جنكيز خان البلاد ، وهزم الروس عند نهر كالكا ، وفي عام ١٢٤٠م. اجتاح باتو خان بن جنكيز خان كييف ، ودارت حروب طويلة بين الروس ، وبين المغول القادمين من الجنوب الغربي ، وبين الروس والكاثوليك القادمين من جهة بحر البلطيق في الشمال الشرقي .

كان العداء مستمرا بين الحكام المسلمين ، ورعاياهم من الروس النصارى الحاقدين على الإسلام ، لذلك استغل الروس الصراعات الداخلية بين الأمراء المسلمين، وحاكوا لهم الدسائس ، وبدلا من هيمنة الحكام المسلمين علي رعاياهم ، اعتمدوا عليهم في صراعاتهم التي مزقت دولتهم .

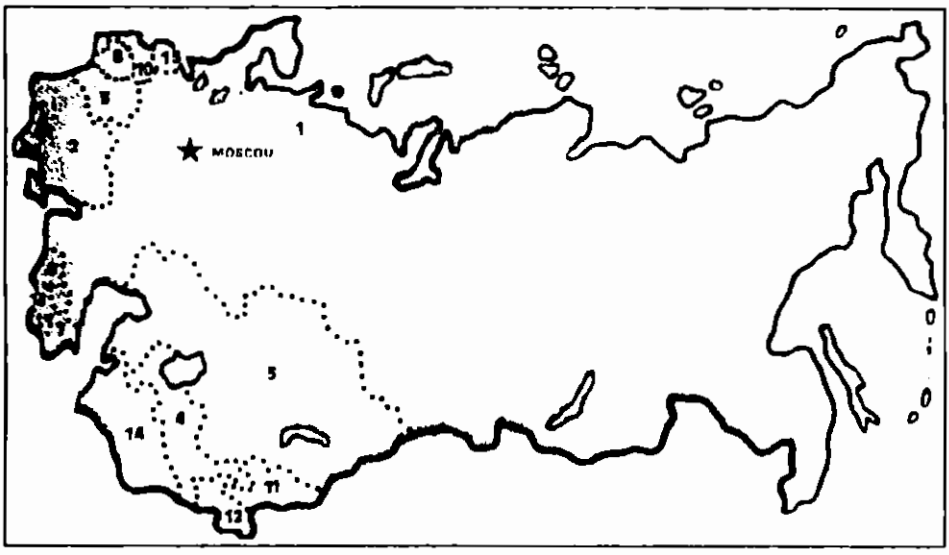

أول دولة روسية موحدة :

في أوائل القرن الخامس عشر ظهرت إمارة موسكو كأقوى إمـــارة ، واســتطاعت السيطرة على بقية الإمارات السلافية الروسية ، وتمكنت من توحيدها تحت حكم مركـــزي هو حكم قيصر روسيا ، ونشأت أول دولة روسية قوية موحدة ، ابتدأت مع ضعف سيطرة التتار بتصفية دولتهم بعد أن انقسمت إلى دويلات القرم واستراخان وقـــازان ، ورفـــض القيصر ايفان الثالث دفع الجزية التي فرضها عليهم الحكام المسلمين بعد فتحهم تلك البلاد، وتمكن الروس من احتلال مواقع حصينة ، ونجح القيصر ايفان الثـــالث ، بعـــد أن كـــون جيشا قويا في أن يؤكد على أهمية دور موسكو كوريثة للامبراطورية البيزنطية ، وبـــرز دور مطران موسكو بوصفه رئيسا للكنيسة الأرثوذكسية ، وزاد من أهميـــة دور الـــروس زواج ايفان الثالث من صوفيا ابنة آخر امبراطور بيزنطي .

الزحف الروسي القيصري الاستعماري

إيفان الرهيب (١٥٣٣: ١٥٨٤م.) واضطهاد المسلمين :

شن القيصر ايفان الثالث ٨٥٥هـــ ــ ١٤٨٠م، حربا صليبية جديدة ضد المســـلمين التتار، ونكل بهم ثم جاء فاسيلي الثالث وقد توطدت العلاقات بينه وبين البابا الذي طلـــب منه أن يعجل بطرد المسلمين إلى ســـيبريا وتشـــتيتهم واعـــدا إيـــاه بملكـــوت الســـماء وبالقسطنطينية، وجاء من بعده ايفان الرابع ٩٦٠هـــ ــ ١٥٥٣م الذي سمي بالرهيب لشدة ما لحق المسلمين من أذى على يديه، بين قتل وذبح وتشريد وإبادة.

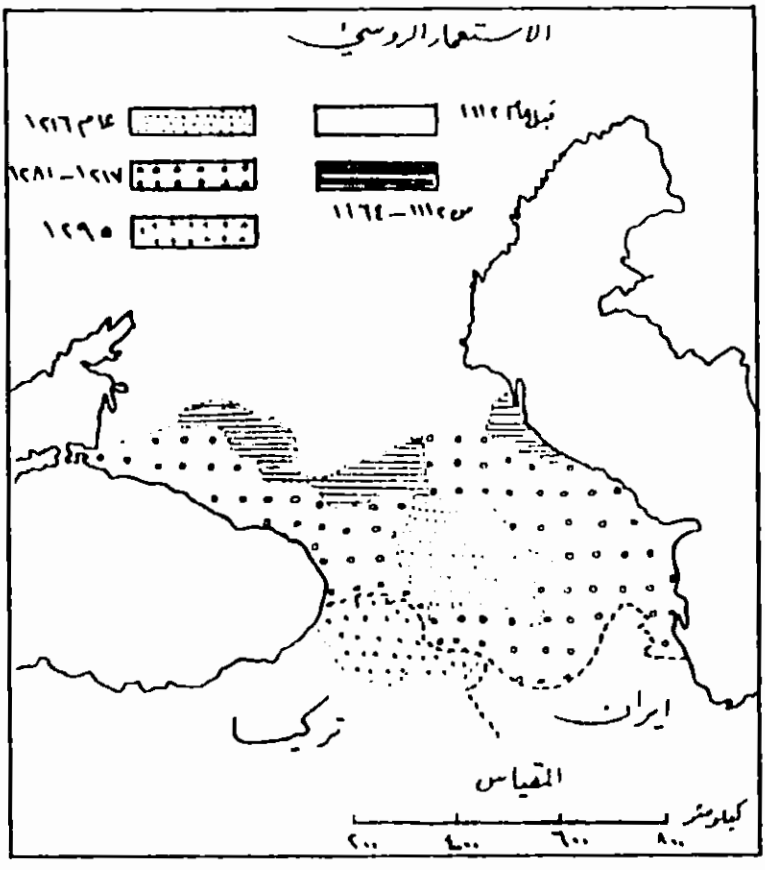

التوسع الاستعماري الروسي في أراضي المسلمين

في عام ١٥٥٢م تحرك ايفان الرابع بجيش قوامه ١٥٠ ألفا ، حاصر بـــه قـــازان واستراخان واستولى عليها ، ونجح في ضم الإمارات الإسلامية الواقعة ما بيـــن موســـكو غربا وجبال الأورال شرقا ، وألحقها بموسكو ، ثم أرغم الباشكير على التجنس بالجنســـية الروسية ، وأخضع الشركس للحماية ، وأشرف بذلك على كامل حوض الفولجا ، ثم امتـــد النفوذ الروسي إلى جبال ألتاى شرقا ، وبحر البلطيق غربا.

خاض إيفان الرابع حروبا وسع بها أراضي روسيا ، وجعـــل منـــها امبراطوريـــة مترامية الأطراف ، وبعد وفاته عاشت روسيا ثلاثة عقود عانت فيها مـــن الاضطرابـــات الداخلية ، والتي انتهت بوصول أسرة رومانوف إلى العرش القيصري .

ونجحت روسيا القيصرية في الفترة من عام ١٥٥٣م إلى عام ١٦٨٩م من احتـــلال المناطق الشمالية لبحر الخزر والأجزاء الشرقية من كازاخستان ومعظم سيبيريا .

بعد سقوط قازان عاصمة إمارة التتار عام ١٥٥٢م . قام الروس باضطهاد التتار المسلمين ، فعملوا على محو آثارهم من الأقاليم التي شغلوها في روسيا ، انتقاما للاضطهاد الذى أنزله المغول بهم أكثر من ثلاثة قرون ، كانوا فيها حكام روسيا ، وبعد هزيمة التتار في قازان وفي استراخان ، انقلب الحال

من حكام يضطهدون الروس إلى رعايا يستذلهم الروس ، بعد أن كان التتار يبيعونهم كالعبيد في أسواق القرم والأناضول .

الصراع على القفقاز[1]:

في نهاية القرن الخامس عشر ظهرت قوتان إسلاميتان في منطقة القوقاز ، هما الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، تنافستا في التوسع ، فانحصر نشاط الدولة الصفوية في منطقة بحر قزوين وأذربيجان ، وتركز نشاط الدولة العثمانية في منطقة البحر الأسود وشمال غرب القوقاز ، وكلتاهما امتدت آمالهما إلى جورجيا وأرمينيا .

بعد سقوط القسطنطينية ، معقل الكنيسة الأرثوذكسية ، في أيدي المسلمين عام ١٤٥٣م. حرك عامل الجهاد العثمانيون في توسعاتهم وفتوحاتهم شرقا وغربا وجنوبا ، فوصلت قواتهم بقيادة سليمان القانوني أسوار فيينا ،وحاصرها أربعة أسابيع لولا أن عاكس الطقس الفاتحين .

اجتاحت جيوش العثمانيين أوروبا ، وتوغلت في القارة ، وحققت انتصارات عظيمة و بدأ العثمانيون في مد نفوذهم إلى بلاد القوقاز والقرم ، بعد أن استفحل الخطر الروسي وأخذ يبتلع بلاد التتر واحدة بعد الأخرى ، وبعد أن دب الضعف في الفرس الذين كانوا يضمون أكثر جهات القوقاز ، واستغل الروس الفرصة في عهد بطرس الأكبر عام ١٧٢٢م. ، لاحتلال القوقاز واستخدامها كمنطقة عازلة بين الامبراطورية الروسية والدولة العثمانية والدولة الصفوية ، واللتين كانتا أكبر قوتين في العالم الإسلامي حينئذ ، واحتلوا داغستان وشروان ، وأجبروا طهماسب الثاني ، آخر من حكم من شاهات الفرس الصفويين ، على أن يتنازل عنها لهم ووصل الروس لأول مرة إلى بحر قزوين.واستنجد السكان بالعثمانيين ، واشتد الصراع في المنطقة ، لذلك دخل العثمانيون في صراع مع الفرس على القوقاز ، وأخذوا ينتزعونها من الصفويين وخاصة أن الصفويين كانوا يجبرون السكان في بعض الأحيان على اعتناق المذهب الشيعي ، وقد تمكنوا من ذلك بالفعل في أذربيجان ، ووقف العثمانيون للمد الشيعي في القوقاز ، وعملوا على تقريب السكان إليهم ، فازداد القوقازيون ميلا إليهم وفضلوهم على الروس النصارى والفرس

---

(١) القفقاز هى القفقاس هى القوقاز

الشيعة ، وأصبح المسلمون فى القوقاز أكثرهم من السنة . ودخلت قبائل كثيرة الإسلام لم تكن قد أسلمت في الشيشان والأنحوش والشركس والقبرطاى والأديغة والأبخاز والأوستين . بينما احتفظ أكثر الأرمن بنصرانيتهم .

مخططات القياصرة لاسترداد القسطنطينية :

في القرن السابع عشر الميلادي ظهر بطرس الأكبر ١٦٧٢:١٧٢٥م وتسلم السلطة عام ١٦٨٨م، أسس مدينة بطرس سبرج (لينجراد سابقا) عام ١٧٠٧م ، بقيت عاصمة لروسيا على مدى ٣٠٠ سنة تقريبا وشارك القيصر بطرس الأكبر المسلمون ـ الذين كانوا يشكلون نسبة كبيرة ـ فى بنائها وتعميرها فى مطلع القرن الثامن عشر وأسهموا برصيدهم فى تطويرها ، ويقطنها اليوم حوالى ٨٠ ألف مسلم ينتمون إلى ٢٠ قومية . وعمل بطرس على زيادة القوة الاقتصادية والعسكرية لروسيا باتباع الأساليب الحديثة ، واستعمال هذه القوة في توسيع الامبراطورية الروسية ، فقام برحلات إلى أوروبا وزار أكاديمات انجلترا وهولندا وألمانيا ، وفى فيينا حاول إقناع الامبرطور ليوبولد بخوض حرب صليبية جديدة ضد الأتراك عام ١٦٩٨م وقام بمفاوضات مع الانجليز والهولنديين بهذا الشأن ، بعد أن رأى أن روسيا لايمكنها الوقوف أمام الدولة العثمانية بدون حلفاء ، وخاض بطرس الأول الأكبر بالفعل حربا حركتها الأحقاد الكامنة في استرداد القسطنطينية من أيدي العثمانيين المسلمين ، واشترك القيصر في الحرب كجندى عادى تحت إمرة جنرالاته وكاد أن يقع أسيرا في أيدى الأتراك .

لفت بطرس الأكبر بقوته أنظار الشرق والغرب، وفتح أمام روسيا أبواب الفتوحات الاستعمارية، فقد جاء في وصيته السياسية: " ينبغي الاقتراب من القسطنطينية، وممالك الهند وبذل أقصى ما يمكن في سبيل ذلك ، لأن حاكم هذه المناطق سيكون حاكما للعالم برمته ، لذلك ينبغي أن تظل الحرب قائمة مع الأتراك حينا ومع الإيرانيين حينا آخر، ولهذا ينبغي أن تقام معامل صناعة السفن على سواحل البحر الأسود ، لكي يتم الاستيلاء على هذا البحر بالتدريج ، وعلينا أن لاننسى بحر البلطيق لأنه في هذين الأمرين سبب نجاحنا ، ويجب الاستيلاء على إيران من أقصاها إلى أقصاها في أسرع وقت والوصول إلى الخليج الفارسي ، ويجب إعادة الطريق التجاري القديم بين الشام والهند إذا كان ذلك ممكنا في سبيل الهجوم على الهند ، لأن فيها خزائن الدنيا ، وإذا ما وصلنا إلى هناك فحينئذ سنكون في غنى عن الذهب الانكليزي "

وطبق الروس المسار الذى حددته الوصية بحذافيره خطوة بخطوة .

أدرك بطرس الكبير بحدة ذكائه مدى العظمة التى يمكن أن ينالها الروس باحتلال القوقاز ، وكان يدفع روسيا إلى التطور ، وكان يرى أن أهم عوامل الرقى والازدهار هى

العوامل الاقتصادية ، لذلك حاول أن يفتح طريقا تجاريا مع إيران عام ١٧١٦م على أمل الوصول إلى التجارة مع الهند .

كاترين الثانية :

وجاءت الامبراطورة كاترين الثانية ١٧٢٩: ١٧٩٦م. وسارت على نفس مخطط بطرس الأكبر ، فور اعتلائها العرش ، وأثمرت جهود بطرس التوسعية في عهدها، فبدأت عمليات الاستيطان الواسعة تجاه الجنوب حيث بلاد المسلمين ، فاستولت على القرم وما وراء الأورال في سهوب آسيا الوسطى وعلى طول بحر قزوين ، وجاء من بعد كاترين ابنها القيصر بول ، وحققت روسيا انتصارات في كرجستان (جورجيا) ثم وضعت الخطط لإلحاق جميع أراضي القفقاز ، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية عام ١٨١١م خسر فيها العثمانيين جميع القلاع والأراضي التابعة لها في غرب القفقاز ، وتمكنت روسيا خلال الفترة من ١٨٠٠: ١٨٢٩م من استئصال النفوذ الإيراني والنفوذ العثماني في القفقاس ، وصرف الروس جهدهم في إخضاع السكان ، واستطاعت روسيا سحق مقاومة أمراء وزعماء كرجستان وقبائل الصحراء، ولكنها لم تستطع أن تخضع لسلطتها قبائل القفقاس الجبلية ، إذ استمرت مقاومة المقاومة الجبلية لفترات طويلة حتى عام ١٨٧٤م . وسطرت فيها ملاحم بطولية في أبخازيا والشيشان وداغستان ، وطال صمودهم لأكثر من أربعين سنة ، شنتوا فيها شمل القوات الروسية التي كانت تشن حملاتها دون انقطاع بقيادة أبرز القادة الروس" يرملوف" قائد قواتهم في القفقاس ، الذي استعمل وسائل الدس والفتنة والوقيعة بين القبائل .

ظهر الانجذاب الروسي نحو آسيا قويا في القرن التاسع عشر للوصول إلى المياه الدفيئة ، والسيطرة على المدينة الإغريقية القديمة ، لاعتقادهم أنهم أصحاب حق فيها باعتبارهم ورثة الامبراطورية البيزنطية ، وبناء على ذلك نظروا إلى العثمانيين على أنهم الدولة التى تحول بين روسيا والشمس ، وأن أصدقاء الأتراك أعداء لهم ، وأعداء الأتراك أصدقاء لهم . وكان هذا ما أدركته كاترينا على الرغم من كونها ألمانية الأصل وفرنسية التربية